من الآثار غير المنشورة للشهيد غسان كنفاني

تنفرد « شؤون فلسطينية » بنشر قصتين بدأ الشهيد غسان كنفاني بكتابتهما وسقط قبل ان ينجزهما

الاعمى والاطرش

— ١ —

سيقال فيما بعد ان ما حدث كان مستحيلا ، أما الآن فالأبعدون يقولون انها مغامرة ، وانا أقول انها الولادة . ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة، والمسألة مسألة وقت ليس غير . كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتسى . ان المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس ، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحى جزءا من الاشياء ، تبدو ، ثمة ، ناقصة دونه .

وقد كنت أسمع دائما عن قبر الولي عبدالعاطي وعن شجرته ، ولكنني لم أكترث قط . لقد حجت أمي ، حين كنت لا أعرف الى ايـــن تحملني وتمضي ، الى قبور كل الاوليـــاء الصالحين ، المزروعة في كل حي وعلى درب كل قرية ، وسكبوا هناك على عيني من الزيت والدعاء ما يذوب جبلا من الصمت والعناد ، ولكن شيئا لم يحدث ، كأن العمى كان شيئا مكتوبا علي منذ البدء ، والى النهاية .

ومضت الآن سنوات لا حصر لها على تلك الايام ، حين كانت تضعني أمي على كتفها وتمضي ماشية كأنها تغوص في بحر لا قرار له ، وكنت أحس المسافة على جبهتها حين تنزلق اليها كفي الصغيرة فألمس فوقها طوفانا من تفصد العرق التعيس ، ولكننا كنا نعود دائما من قبور الاولياء كما كنا نذهب ، تضيء أمي طريقنا بعينيها الباكيتين الراجيتين ، وأتعرف أنا الى مسافة الرحلة من العرق المتفصد على جبهتها .

ولقد يئست . اقول لك يا حمدان انني يئست . ولو كنت جذع شجرة زيتون لتعبت ، عصرت على عيني كل اعشاب الارض ، وتركت أكف الالاف من الاتقياء والدجالين تمر فوقهما فلا تزحزح راقة واحدة من راقات العتـــم الابدي الذي كان يوصد بين جفني بوابات ليل ضار ، لا نهاية له ، وذات يوم اكتشفت العبث كما تكتشف انت المبصر شروق الشمس . انت تعرف تلك اللحظات العجيبة التي تساوي العمر كله . كانت لحظة من ذلك الطراز الذي لا يقهر والتي تجيء وهي عازمة على عدم الارتداد . ومذ ذاك وانا جالس ، كما تراني ، أرشو الظلام بالصوت ، وانسى . انت يا حمدان ما زلت صغيرا ، تتصور القدر ضربة صدفة لا تزحزحه الا ضربة صدفة أخرى ، وبعد أن مضى كل هذا العمر تقول لي أن أمضي الى قبر الولي عبد العاطي ، حيث قام الكسحاء يركضون ، والخرس ينطقون ، والعواقر يلدن ؟ أتريد أن أركب تلك الارجوحة مرة أخرى في عمر واحد يا حمدان ؟ اتريدني مرة أخرى أسير ذلك الامل التافه المروع ؟

قبر الولي وشجرته ! واليوم تقول انهم رأوا راسه الوقور يتجه بالدعاء الصامت الى